العلامة اللغوية والعلاقات الاستبدالية و التركيبية في التراث[1] اللغوي العربي (الجاحظ أنموذجا)

د:ابن شتوح عامر

جامعة عمار ثليجي بالأغواط - الجزائر

الملخص:

إن هذا المقال جاء ليبحث في قضية لغوية جد هامة،إنها العلامة اللغوية وعلاقتها بالعلاقات الاستبدالية و التركيبية برؤية حداثية باعتبارها آلية من أهم الآليات التي تعمل بها اللغات الطبيعية البشرية،فهناك جهود بذلت من أجل فهم هذه الآليات التي تتحكم في اللغة المنطوقة وكيفية انتاجها،فجاءت أعمال الباحثين و الدارسين اللغويين من أجل فهم أسرار اللغة،وعلى رأس هؤلاء اللسانيين فيرديناند دي سوسير والعالم اللغوي العربي الجاحظ الذي طرح قضية الدلالة وتتبع أشكالها انطلاقا من فكرة النظم[2] التي وجدنا لها ملمحا قويا في كتابه البيان والتبيين،فحاولنا في هذا العمل الربط بين الدرس اللساني الحديث و التراث اللغوي العربي،و في هذا المقام إننا لا نعدم بحثا في هذا المنحى الذي حاولنا أن بحث فيه.

Abstract:

This article came to search at a linguistic issue that is very important, it is the linguistic sign and its relationship with the substitutive and structural relationships with a modernist view as it is a mechanism that is one of the most important mechanisms by which natural human languages operate, there have been efforts in order to understand the mechanisms that control the spoken language and how it is produced, and thus came the works of researchers and linguistic scholars in order to understand the mysteries of language, and at the top of those linguists is Ferdinand de Saussure, and the Arab scientist and linguist Al-Jahiz who laid the grounds for the issue of the significance and track its forms on the basis of the idea of the systems that we found a strong feature for them in his book Significance and Signifying, and thus we tried in this work to link between the modern linguistic lesson and the Arab linguistic heritage.

أولا - العلامة اللغوية والدرس اللساني الحديث:

إن الدراسات اللغوية الحديثة دراسات تميزت بوضوح المنهج ودقة في الرؤية،وهذا كان نتيجة التغيرات العلمية

---

[1] – **مفهوم التراث**:"إن تراث أمة ما هو ما قدمه سلفها في مجال التفكير والثقافة–بما فيها التراث اللغوي–بصفة عامة وتوارثته الأجيال،وأضافت إليه ما استطاعت أن تضيف،وأمة بلا تراث هي أمة بلا مستقبل،وذلك لأن تراث الأمة يحفظ لها ملامحها المميزة ومكونات شخصيتها،ويعطيها قاعدة تبني عليها مستقبلها"،مصطفى مُحَمَّد طه،العودة إلى التراث ضرورة حضارية،مجلة آفاق الثقافة والتراث،السنة الثامنة عشرة،العدد70،يونيو2010،ص31".

[2]) – لم يعثر إلى اليوم على الكتاب الذي يحمل عنوان **نظم القرآن** إلى اليوم وإنما جاء ذكره في مؤلفات الجاحظ كالحيوان مثلا.ولم يكن الجاحظ الوحيد من اللغويين الذي أشار إلى فكرة النظم فهناك ابن المقفع و سيبويه و بشر بن المعتمر .

والاجتماعية الحاصلة التي كان لها الأثر الواضح في ذلك.

فهناك العديد من الباحثين و الدارسين تميزوا برؤية علمية دقيقة ومنهج إجرائي واضح في دراستهم للغات البشرية بالمفهوم العلمي و الموضوعي الصحيح،فهذا العالم اللغوي فيرديناند دي سوسير[1](Ferdinand de Saussure) الذي أحدث ثورة في أوساط علماء اللغة ،بمجيئه بفكر لغوي متميز كان له وقع على عقول الباحثين و الدراسين و كذا المهتمين،خاصة إذا تعلق الأمر ما يعرف بثنائيات دي سوسير،والذي يهمنا منها ثنائية الدال والمدلول التي أعطها بعدا آخر خاصة عندما تطرق إلى العلاقة بينهما ،إذ الدليل اللساني مركب من الدال والمدلول وهو أمر مزدوج يقوم على تقريب حدين في الحكم[2] فالدليل اللساني عند دي سوسير يتكون من أمرين هما :

أ- الدال -le signifiant -وهو مجموعة الأصوات القابلة للتقطيع أو بما يسمى الصورة الصوتية أو السمعية المتمثلة في الإدراك النفسي الناتج عن تتابع الأصوات اللغوية مثل:-ر-ج-ل-

ب- المدلول — le signifie وهو المفهوم أو المعنى – التصور – concept - ويتشكل من مجموع السمات الدلالية مثل :رجل-إنسان-حي-عاقل-بالغ-ذكر ...مجموع هذه العلامات هو الذي يكون لنا مفهوما أو تصورا ،كما أن هذين العنصرين يتميزان بارتباط شديد لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ،فهما تنشأ بينهما علاقة حيوية أثناء العملية التواصلية ،إذ يقتضي وجود أحدهما وجود الآخر[3] فلو أن أحدا ما نطق صورة سمعية ما –دال- دون أن يكون على وعي بسماته الدلالية فإن هذا الدليل يبقى مجرد أصوات ليس إلا ،كما أن وجود مدلول دون دال لا يمكن أن يكون لنا دليلا لسانيا.

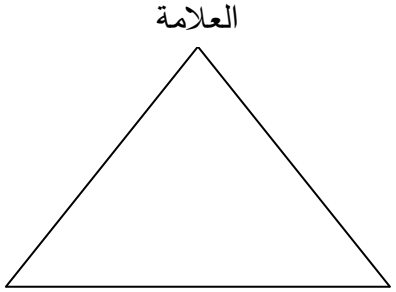

[1])- فرديناند دي سوسير (ferdinand de soussure) :عالم لغوي سويسري مؤسس علم اللغة الحديث أوعلم اللسان الحديث(اللسانيات) ولد سنة 1857 بجنيف وفي سنة 1881 كلف بالتدريس بمعهد الدروس العليا بباريس مدة 10 سنوات وفي سنة 1891 عاد إلى جنيف وشرع في التدريس بجامعتها توفي سنة 1913 من مؤلفاته مذكرة في النظام البدائي في اللغات الهندوأوروبية وأطروحة تحت عنوان استعمال المضاف المطلق في اللغة السنسيكريتية وبعد وفاته طبع له تلامذته محاضراته في كتاب تحت عنوان دروس في اللسانيات العامة (ينظر:أحمد حساني،مباحث في اللسانيات، و م ج الجزائر، 1994، ص ص 30 ،32).

- Voir: Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, 1)enaG/alger,reghaia 1990 p107

[3])-ينظر: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، ص ص 12-13- 14 وp108 /cours de linguistique generale

1-اعتباطية الدليل اللغوي:

إن المراد بالاعتباطية arbitraire هي عدم وجود علاقة منطقية أومعللة بين الدال والمدلول إذ لا يتحد الدال مع المدلول وفق اقتضاء منطق،وإنما ينشأ ذلك الرابط بينهما من قبيل المواضعة والاصطلاح بين أفراد المجتمع الواحد ،إلا أن الجدير بالذكر أن مبدأ الاعتباطية غير محققة في بعض الأحيان مثل بعض الأصوات الطبيعية تثبت بأن الدال ليس دائما اعتباطيا[1].

2-مبدأ الخطية للدال اللغوي: L inearite

إن الطبيعة الصوتية التي يتميز بها الدال اللغوي ،تجعل عناصره تأتي على شكل تعابير صوتية وفق خط زمني ، ترصف فيه، فتأتي متتابعة الواحد منها تلو الآخر مكونة سلسلة ،فمن غير المعقول أن يتلفظ المتكلم بصوتين في الوقت ذاته ،وتتجلى هذه الخاصية أكث في الكتابة المرسومة مثلا لو أخذنا كلمة -كُتِبَ-تأتي الضمة بعد الكاف والكسرة بعد التاء والفتحة بعد الباء ،كما يظهر لنا ذلك في الكتابة الصوتية –kutiba-أما التدوين بالحروف العربية يكون على النحو الآتي : /كُ/ +/تِ/ /ب/+َ وليس /كُ/ +/ ت / +/ ب / أو /كُ /+/ تِ/ + /بَ/

أما فيما يخص السكون لا يمكن عدها حركة من بين الحركات فكلمة (لن) تكتب صوتيا هكذا / Lan / وتجزأ كالآتي : /ل/ +َ /ن/ وليس /ل/+َ/ ن/ +ْ

وكذلك حروف المد لا يمكن عدها من الحروف فكلمة [قال] تكتب صوتيا / Qala / وتجزأ كالآتي : /ق/+َـا + /ل/ +َ أما الرمز ـا يقابل/ a[2] /

إن مبدأ الخطية للدال قائم على عدم إمكانية نطق صوتين لغويين في نفس اللحظة الزمنية،وعدم تكرار نفس الأصوات عند النطق بها.

لقد قلنا في بعرفية و تواضعية اللغة عند الجاحظ[3] من خلال المحالة التي قمنا بها وهذا انطلاقا من مجموع النصوص التي

---

[1])– ينظر :دي سوسير،محاضرات في للألسنية العامة،تر:يوسف غازي مجيد النصر،المؤسسة الجزائرية للطباعة،ص 91 ومدخل للسانيات سوسير ،ص 43 و ما بعدها . اعترض بشدة العالم اللغوي بنفينيست على ديسوسير الذي قال بأن العلاقة بين الدال و المدلول اعتباطية ، فهو يرى أنها علاقة تلازمية بينما الاعتباطية بين الدال و الشيء الخارجي (المرجع) .

[2])– ينظر : محاضرات في اللسانيات العامة ص 114،ومصطفى حركات،اللسانيات العامة،دار الآفاق،ص ص 18 - 19 .

[3])– هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب قيل أنه كناني بالولاء فقد لقب بالجاحظ لجحوظ عينه ونتوئهما مما جعله دميما،كما أن تاريخ ولادته وتاريخ وفاته لا يخلوان من الاضطراب على أن المتفق عليه أنه ولد عام(159 هـ 775م)،ومات عام(255 هـ 868م) أي أنه عاش 96 سنة، ولقد شكى هو نفسه كبر السن في قوله عندما ذكر مرضه "وأشد من ذلك ست وتسعون سنة أنا فيها"ولا مجال لنا أن نذهب بعيدا مع خلافات الرواة حول مولد الجاحظ فقد نقل ياقوت الحموي في معجمه أن أبا عثمان نفسه قال: "أنا أسن من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة مائة وخمسين وولد هو في آخرها" وجعل بعض المؤرخين

وجدناها مبثوثة في المدونة ،فالجاحظ يرى أن الفرد يكتسب لغته من الاحتكاك الناشئ بينه وبين المجتمع اللغوي الذي يعيش فيه ،كما أن الدليل اللغوي عنده يختلف بشكل أو بآخر عنه عند دي سوسير.

العلامة اللغوية عند الجاحظ كيان يتشكل من ثلاثة عناصر أساسية من أجل حدوث عملية الاستدلال :

-الدال :كالخبر الذي سماه بالمعاينة

-المستدل عليه :(المدلول) وهو المعنى الخفي

-المستدل :وهو العقل الذي أعلى من شأنه كما ر أينا ذلك في الفصل الأول(مبحث أسس تصور العلامة)

وعليه نجد أن العلامة عند الجاحظ مكونة من ثلاثة عناصر،وهي غير قابلة للاختزال أو النقصان.

إن الجاحظ حينما تحدث عن عملية الاستدلال لم يقتصر ها على العلامة اللفظية أو البصرية،وإنما تعداه إلى كل أصناف الدلائل الممكنة من لفظ وغير لفظ.

فهي تقترب من التصور الذي جاء به شارل سندرس بيرس،فعملية الاستدلال تقوم على ثلاثة عناصر :

- الممثل :representament

-الموضوع :objet

-المؤول:Interpretant

-هذه العناصر الثلاثة ،هو تصور للدلالة بمختلف أنواعها سواء كانت لفظية أو غير لفظية عند بيرس مثله مثل الجاحظ.

من خلال هذه سنحاول أن نجري مقارنة بين بيرس و الجاحظ فيما يخص عملية الاستدلال عندهما ،إنه لأمر عجيب أن نجد هذا التقارب والتشابه في الأفكار بين الرجلين رغم بعد الجغرافي و الزماني بينهما واختلاف العقائد والأديان ،هذا ببساطة لأن العلم يتجاوز هذه الحدود.

-إن مفهوم الممثل يقترب من مفهوم الخبر والمعاينة عند أبي عثمان فالممثل على حد تعبير الدكتور مبارك حنون يمثل شيئا ما وهو الصورة الصوتية أو المرئية –البصرية- إذا كان الأمر يتعلق بكلمة معينة ...إنه ناقل الدليل من زاوية مظهره الثاني[1].

- أما الموضوع –ما يمثله الدليل ،وهو غير مجسد ،وهو ضروري لتبليغ أي أخبار ... [2] إنه المعنى الخفي المضمر عند الجاحظ .

-في حين أن المؤول هو الذي يربط بين الممثل والموضوع أما عند الجاحظ العقل الذي يربط بين المعنى الخفي والعيان أو الخبر ويمكننا أن نمثل تصورهما في المخططين البيانيين الآتيين :

ولادة الجاحظ: (155هـ) عند أبي الجوزي في مرآة الزمان و(160هـ) شفيق جبري، أما الزركلي سنة(163هـ)في الأعلام.وهكذا أصبحنا أمام روايات مختلفة لمولده وليس بين أيدينا ما يمكننا القطع والجزم لأي منها لكن يمكننا ضم رأينا إلى رأي الدكتور طه الحاجري حيث قال:"نستطيع أن نطمئن إلى أن مولد الجاحظ كان في العقد السادس من القرن الثاني"ينظر طه الحاجري، الجاحظ حياته وآثاره، دار المعارف بمصر، 1969م، ص89.

[1])- ينظر : دروس في السيميائيات ص 46 .

[2])- نفسه،ص46.

- بيرس

Interprétant

objet representament

– الحاحظ

المستدل

(العقل)

المعنى (المستدل عليه)

العيان أو الخبر

ثانيا- العـــلامة اللغـــوية والعـــلاقات الاستبـــدالية والتـــركيبية:

Le signe linguistique et les relations paradigmatiques et syntagmatiques

إن اللغة كنظام لها مجموعة من الآليات التي تعمل بها ،فنظامها ليس كما يعتقد البعض مجرد إصدار مجموعة من الأصوات،بل إن هذه الوحدات الصوتية تعمل وفق نظام غاية في الدقة،وهذا ما كشف عنه دي سوسير حينما اعتبر اللغة مؤسسة اجتماعية تحكمها أعراف وقوانين محددة،فلولا هذه القوانين التي تتحكم في بنيتها ما تميزت بالخاصية الدلالية التي ليست شيئا خارجا عن الإشارة –العلامة -إنما تتولد – الدلالة- من علاقة العلامات اللغوية بعضها مع بعض في تركيب الجملة ،فالدلالة اللغوية لن تتم إلا في إطار وجود علامات لغوية داخل نظام لغوي معين واتباع العلامات أو الوحدات اللغوية نحوا محددا [1].

فمفهوم النظام كما قلت سلفا له مجموعة من الآليات[2] التي يعمل بها ،ومن بين هذه الآليات العلاقات الاستبدالية

1)-ينظر:ميجان الرويلي –سعد البازعي،دليل الناقد الأدبي ،إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا ،المركز الثقافي العربي ،بيروت ،لبنان ،ط2 ،2000،ص 34.

2)– الآليات التي يعمل بها النظام عند دي سوسير :**التقابل** : يقول دي سوسير في ذلك :-إن كل علامتين تشمل كل منهما على دال ومدلول ليس مختلفين إنهما متمايزتان فحسب وليس بينهما غير التقابل –للتوسع أكثر ينظر :محاضرات في الألسنية العامة ص 164.فلا يمكن إقرار وحدة لغوية إلا بوجود وحدة تقابلها داخل النظام ،ينظر: مبادئ في اللسانيات العامة ،دار القصبة للنشر ،ط1 ،2001م ،ص 85.**التمايز** :تظهر هذه الآلية عندما نقوم بمقابلة بين وحدة وأخرى،أما.**التشابه والاختلاف** :يقول دي سوسير في ذلك :تعمل الآلية اللغوية بمجملها وفقا للتشابه والاختلاف ،للتوسع أكثر ينظر : محاضرات في الألسنية العامة ص 132.وهما آليتان مهمتان تظهران من خلال تقابل العلامات على مستوى المحور الاستبدالي فقد يكون العنصران متشابهان صوتيا لكنهما مختلفان دلاليا مثلا:-pommeوpaume – و-fuirوfouir –ملاحظة هناك كلمات تأخذ دلالتها من السياق اللغوي الذي ترد فيه .

والتركيبية،هذه الآلية التي انتبه لها دي سوسير،هي عبارة عن محورين أساسين يقوم عليهما مبدأ العلاقة بين العلامات كوحدات دالة في النظام إذ تبرز أهمية هذين المحورين كونهما يمثلان الجانب الإجرائي الذي يعمل فيه و به النظام اللغوي،بحيث تتجلى آلية التشابه والاختلاف بين الوحدات اللغوية ، وتظهر قيمة العلامات،لان محصلة الوصف اللغوي في إطار هذه العلاقات هي القيمة[1] [4] [2]فحركية وفاعلية الوحدات اللغوية تتجلى لنا من خلال هذين المحورين باعتبارهما من أهم الآليات التي يعمل بهما النظام .

إن العلاقات التركيبية علاقات مبنية على صفة الخطية والتي مفادها أنه لا يمكن للمتكلم النطق أو التلفظ بعنصرين في آن واحد،وهذان العنصران إنما يقع الواحد منهما إلى جانب الآخر،إنها علاقات توجد بين وحدات تنتمي إلى مستوى واحد ،و تكون متقاربة ضمن منطوقة أو عبارة معينة أو مفردة معينة،في سياق أفقي متدرج زمنيا تجيء كل وحدة في تتابع زمني عقب الأخرى[3].

أما العلاقات الاستبدالية إنها وحدات تدعوها وحدات الجملة،وحدات أخرى تكون خارج السياق اللغوي يمكنها أن تحل محلها شريطة أن تؤدي وظيفة تركيبية،فدي سوسير يعرفها بأنها" تلك العلاقات التي تتحقق وظيفتها ضمن إدراك الترابط الذهني الحاصل بين العلامة اللسانية و العلامات التي يمكن أن تحل محلها مما يمكن أن تتسم معه –خارج الخطاب –بشيء مشترك وتترابط معه في الذاكرة مشكلة مجموعات تسودها علاقات مختلفة "[3] ولهذا يتحدد معنى الكلمة –العلامة –في الجملة وعلاقاتها بما قبلها وما بعدها،إضافة إلى السمات العمودية للكلمة،وهي مجموع البدائل أو الأضداد أو المترادفات التي من شأنها أن تحل محلها،إلا أن المفردة المختارة قامت بإزاحتها ووقع الخيار عليها بدلا من غيرها [4].

وفي ظل ما تقدم يمكننا التنويه بالعلاقات التركيبية بأنها علاقات تتسم بالحضورية أي أن تربط وحدة لغوية بأخرى،هي علاقات حاضرة في النظام ذاته،أما العلاقات الاستبدالية فهي علاقات تتسم بالغيابية كونها موجودة على مستوى الذهن ،أي باعتبار ما هو مخزن في الذهن،وهذا يعني أنها غائبة عن النظام إلا أنه يمكن استحضارها لداع من الدواعي [5].

---

1)- قيمة العلامة :كما يقول دي سوسير تظهر عندما تتحد بعلاقتها بوحدات النظام الأخرى ينظر ديسوسير رائد علم اللغة الحديث كما يمكننا أن نقول إن قيمة العلامة اللغوية هي ما يمثل المعاني النسبية الخلافية التي تحدد معنى العلامة بالنسبة إلى غيرها من العلامات الأخرى التي تشترك معها في النظام نفسه فمثلا قيمة العلامة – علم– هي معناها بالنسبة إلى العلامات التي تتقابل معها استبداليا في نظام اللغة العربية ومن أبرز معانيها التقابلية :

أ– معنى التضاد مع الجهل ب– معنى الترادف في تقابلها مع معرفة ج– معنى الجناس في تقابلها مع الحلم د– معنى الاسمية في تقابلها مع الفعل والحرف هـ– معنى المصدرية من الجذر ع،ل،م في تقابلها مع بقية المشتقات :علم ،تعلم ،عالم ،معلم ...ينظر:من على هامش مبادئ في اللسانيات العامة ص88.وينظر أيضا:مُحَمَّد حسن عبد العزيز ،سوسير رائد علم اللغة الحديث ،دار الفكر العربي ،القاهرة ،ط1،ص 37 .

2)- ينظر :سوسير رائد علم اللغة الحديث ،ص 43.

3)- محاضرات في الألسنية العامة،ص149.

4)- ينظر :دليل الناقد الأدبي،ص 35.

5)- ينظر:سوسير رائد علم اللغة الحديث،ص 37.

1- **العلاقات الاستبدالية:**Les relations paradigmatiques

لقد أشار الجاحظ إلى هذين المحورين مستعملا في ذلك مفهومي التأليف تارة والتخيير تارة أخرى،وفي هذه الحال سوف نتناول هذا الأخير بمعنى العلاقات الاستبدالية التي تحدث عنها في كل مرة بمفهوم التخيير،في نصوص عدة من البيان والتبيين،ففي هذا المستوى يمكن أن تتجلى فيه مستويات ممثلة هذه العلاقات:
-مجموع الصيغ الصرفية المشتقة من جذر واحد .
-مجموع الكلمات التي يمكن أن يعوض بعضها البعض للآخر ضمن موقع بعينه في تركيب ما.
- مجموع الاعتقادات والقيم ...والتقنيات المشتركة بين الأفراد [1].

هناك نصان للجاحظ تحدث فيها عن التخيير ويظهر ذلك في قوله "وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ،وملحة من ملح الحشوة و الطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب أو تتخير لها لفظا حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ،فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ،ويخرجها من صورتها "[2] ويقول في نص آخر " رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير اللفظ" [3]

من خلال هذين النصين اللذين أوردناهم الجاحظ نجده قد استعمل مفهوم التخيير الذي كان يعني به العلاقات الاستبدالية،فهو في النص الأول دعا إلى عدم الاختيار لنادرة من نوادر العرب لأن ذلك يفسد كنهها وجمالها ،أما في النص الثاني نجده يقر بأن رأس الخطابة يتطلب منا أن نختار لها أبهى الألفاظ وأجملها،فيبدو أن الجاحظ كان واعيا كل الوعي بهذا المحور والدور الذي يلعبه في العملية الإبلاغية التواصلية بين المتخاطبين،كون المتكلم يحمل كما هائلا من الوحدات اللغوية في ذهنه فعليه أن يحسن اختيار الألفاظ التي تؤدي الدلالة المراد توصيلها إلى المتلقي .

غير أن الملفت للانتباه يبدو الجاحظ يعرف جيدا الدور الذي تلعبه العلاقات الاستبدالية سواء في بناء أو هدم الكلام ، فهاهو يحذر من اختيار الألفاظ الصعبة التي تؤدي بالمتكلم إلى التعقيد،فالذي يريد أن يكون معناه سهلا مفهوما عليه أن يختار له ألفاظا كريمة ،يقول في ذلك :"...إياك والتوعر ،فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ،ويشين ألفاظك ،ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما ...فكن في ثلاث منازل ، أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ..."[4]

كما أن الجاحظ يشير إلى ما يوحي بمدى أهمية الاختيار للوحدات اللسانية –دلالات ومدلولات –حيث يرى أبو

1)ينظر:مارسيل داسكال،الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة ،تر:محمد العمري،عبد الرحمن طنكول،محمد الولي،مبارك حنون،إفريقيا الشرق،الدار البيضاء،دط،1987م ص83

2)- البيان والتبيين، ج1 ،ص146.

3)- نفسه ،ج1 ص 4

4) –البيان و التبيين ، ج1،ص 136.

عثمان أن استحضارها هذه العلاقات أمر ضروري وهذا للتمييز بين صفات الكلام المترابطة في الذهن حين التعامل مع اللغة بما يسمح للسامع أو المتكلم تحقيق الدلالة على الوجه المتعارف عليه بين المتكلمين من أفراد الجماعة الواحدة .

ومنه تقرر لدى السيميائيين أن صفة الاختلاف بين العلامات يحقق بينها صفة التقابل ،و بالتالي تظهر وظيفة التقابل في تأدية الفوارق المعنوية الموجودة بين الوحدات اللسانية[1] ، فالعلامة اللغوية لا يمكن أن تستمد تميزها إلا بوجود هذا الاختلاف الموجود بينها وبين الوحدات الأخرى ،فعملية الاختيار التي دعا إليها الجاحظ لا يمكن أن تتم إلا إذا كان هناك تمايز بين الوحدات اللغوية سواء كانت هذه الوحدات دالة أو غير دالة فمثلا لو أخذنا الوحدتين (نال) و (قال) نلاحظ أن (نال)تميزت بمخرج النون الصوتي –ن- عن (قال) التي تميزت في هذه الحال بمخرج القاف-ق- [2]

فقد أشار الجاحظ إلى ضرورة اختيار هذه الوحدات اللغوية غير الدالة لأنها إذا اختيرت اختيارا عشوائيا ووضعت في غير موقعها الخاص بها فإن ذلك يشق على اللسان النطق بها "فإن الجيم لا تقارن الظاء والقاف ولا الطاء ولاالغين بتقديم ولا بتأخير ..."[3]

إن إنتاج معنى لغويا ما يخضع بطريقة أو بأخرى لهذه الشبكة من العلاقات باعتبارها من أهم الآليات التي يعمل بها النظام اللغوي ،فهي في نظر الجاحظ مهمة سواء كان ذلك على مستوى الدوال أو المدلولات ،فمن بين الكم الهائل المخزون في الذهن يقوم المتكلم باختيار ما يناسب المقام يقول الجاحظ:"...ولم غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل [4]، ورأيت عامتهم –فقد طالت مشاهدتي لهم –لا يقتفون إلا الألفاظ المتخيرة،والمعاني المنتخبة،وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة و الدباجة الكريمة... "[5]

إن عملية الاختيار إن دلت إنما تدل على الحركية التي تتصف بها اللغة،فهذه العلاقات التداعية هي علاقات تجمع بين وحدة من وحدات اللغة حالة إخراجها في حيز لفظي مع وحدات أخرى لا تظهر هناك [6] ،فالعملية التنظيمية أو التصنيفية لن تتم على مستوى العلاقات التركيبية لا تتم إلا إذا سابقتها علية التخيير على مستوى العلاقات الاستبدالية ،وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن العمليتين أو المحورين منفصلين أثناء الحدث الكلامي،بل العكس من ذلك فالمتكلم لا يشعر بهيتين العلاقتين عند الكلام أو عند التواصل مع الآخرين . ها هو الجاحظ يؤكد على أهمية علاقات التخيير فشمل عنده الدوال و المدلولات بقوله :"...فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعاني وتخير

---

[1])– ينظر:محاضرات في الألسنية العامة، ص6 .

[2])– ينظر :نفسه ،ص 85.

[3])– البيان والتبيين، ج1 ،ص 69.

[4])– الشاهد والمثل :ما هما إلا عملية معادلة للتأليف والتخيير عند الجاحظ للتوسع أكثر في ذلك ينظر:النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية ص310 وما بعدها .

[5])– البيان والتبيين ، ج4 ،ص 24.وذكر هذين المفهومين في ج1،ص 86 .

[6]) – ينظر:النظريات اللسانية و البلاغية والأدبية ،ص 313.

الألفاظ وتمييز الأمور ... "[1]

انطلاقا مما ذكرناه يمكن أن نقول إن الجاحظ كان واع، بأن لهذه الآلية دور بارز في بناء وتوضيح الدلالة اللغوية على أساس المقابلة بين المعاني المختلفة التي يجب على المرسل أن يدقق فيها النظر جيدا ثم يختار لها الأسماء –الألفاظ- المناسبة ،وبالتالي نحصل على نوع من المقابلة التي يرتبط فيها كل اسم بما يناسبه من المعنى،فالجاحظ قد أدرك بأن المتكلم له مخزون من المعاني على مستوى الذهن فعليه أن يقوم بترتيبها أولا بعد التدقيق فيها ثم يختار لها ما يناسبها من الألفاظ كما قلت سلفا.

2-العلاقات التركيبية:Les relations syntagmatiques

تعتبر العلاقات التركيبية في نظر دي سوسير " علاقات مبنية على صفة اللغة الخطية تلك التي تستثني إمكانية لفظ عنصرين في آن واحد ،وهذان العنصران إنما يقع الواحد منهما إلى جانب الآخر ضمن السلسلة الكلامية [2] "ويعرفها رولان بارتRoland Barthes-على أنها نسق –تأخذ فيه العلامة موقعها بالنظر إلى أخواتها المجاورة لها في السياق الفعلي [3 - 4]

أما الجاحظ فقد أشار إلى العلاقات التركيبية في مواضع مختلفة من البيان والتبيين ،فهذا يدل على وعيه التام لما تحمله هذه العلاقات من الأهمية باعتبارها آلية مهمة يعمل بها النظام اللغوي أثناء الكلام الفعلي بين المتكلمين ،إذ العلامة اللغوية لا تكتسب قيمتها إلا داخل هذا المستوى التركيبي –علاقات التأليف-وهذا يعني أن عبارة ما في تركيب ما لا تكتسب قيمتها –معنى- إلا بتقابلها مع ما يسبقها أو ما يليها أو الاثنين معا.[5]

فالدارسون المحدثون رفضوا-دراسة ومعالجة المفردات من حيث كونها ماهيات منعزلة ،ومنحوا العلاقات القائمة بين الكلمات الأولوية في الدراسة [6].

حيث نشير إلى أن هذه العلاقات التركيبية بين الوحدات اللغوية تحكمها مجموعة من القواعد والقوانين تسمى بالتراكيب النحوية حيث أن هذه التراكيب النحوية تختلف باختلاف لغات العالم فلغات العالم لا تستعمل نظاما لغويا واحد في بناء جملها وتراكيبها [7] بل هناك أنظمة لغوية مختلفة،كما أن ترتيب عناصر الجملة لا يخضع لنظام الجملة الداخلي فقط

---

[1]) – البيان والتبيين، ج3 ،ص 14.

[2]) – محاضرات في الألسنية العامة ،ص 149

[3]) – السياق الفعلي :اللغة في صورة الخطاب الفعلي المنجز ،وليس اللغة في نظامها الشكلي المجرد.

[4]) Roland Barthes essais critiques éditons de seuil, paris,1964 p/206

[5]) – ينظر :محاضرات في الألسنية العامة ،ص 137

[6]) – نفسه ،ص 7

[7]) – ينظر:كريم زكي حسام الدين ،أصول تراثية في اللسانية الحديثة،ط3 ،2001م ،ص208.

فقط فهناك ظروف أخرى تتحكم فيه كسياق المقام يقول الجاحظ:"فإذا رأت مكانه الشعراء وفهمته الخطباء ،ومن قد تعبد للمعاني وتعود نظمها وتنضيدها وتأليفها وتنسيقها ..."[1] من خلال هذا النص نلحظ أن الجاحظ على ثقة تامة بما يقول فعباراته المستعملة لا تختلف عن مفاهيم علماء اللغة المحدثين ،فهو يرى أن التأليف والتنضيد والتنسيق للمعاني تحتاج إلى تعود ودربة وتمرن ،حيث تكون هذه العملية على المستوى الأفقي للجملة أو بما يسمى بالعلاقات التركيبية فالمتكلم لابد أن يكون ملما بالقواعد والقوانين للغة التي يتواصل بها ،وبالتالي يتحرى المواقع الصحيحة والمناسبة للكلمات التي يستعملها،لأن هذه الألفاظ [2] المكونة للجملة إذا لم تقع في موقعها،فهذا يعني وبكل بساطة الإخلال بالنظام العام للغة التي يتكلمها،و بالتالي يؤدي هذا إلى فساد المعنى المراد توصيله إلى المتلقي أو يؤدي إلى إعاقة الفهم يقول الجاحظ في ذلك :"قال نفيس لغلام لي :الناس ويلك أنت حياء كلهم أقل – ويصحح ذلك الجاحظ بقوله :"يريد:ويلك أنت أقل الناس كلهم حياء "[3] وفي نفس المعنى يورد الجاحظ نصا آخر يرى فيه أن أي الإخلال بالنظام يؤدي إلى خلل في المعنى قائلا:-وقلت لخادم لي :في أي صناعة اسلموا هذا الغلام ؟قال:في سند نعال، يريد :في أصحاب النعال السندية"" [4].

فالمتكلم في نص الجاحظ السابق يبدو أنه لم يستطع أن يقوم بعملية التأليف كما يجب ،و هذا مرده إلى كونه يجهل القوانين التي تجعله يؤلف ،وهذه الكلمات تأليفا يتناسب مع المواقع السليمة لها ،فطبيعة العلاقات التركيبية –تقوم على المغايرة ،فكل كلمة في الوحدة–الجملة –هي مغايرة للأخرى وتختلف عنها في كل خصائصها ،ولا يجمع بينهما إلا قابليتهما للتجاور ،وهذه علاقات حضورها يقوم على شيء حادث في الجملة[5] لأن الظاهرة اللغوية حتى تتصف بالا بلاغية أي أن أن تحمل كلاما صحيحا مفهوما لابد أن تخضع- لظاهرة التركيب ،وهي تخيير الكلام ونظمه لتشكيل سياق الخطاب الأدبي و التركيب عنصر أساسي في الظاهرة اللغوية ،وعليه يقوم الكلام الصحيح [6] وهذا يتطابق تماما مع ما قال به الجاحظ في النصين السابقين ، فتصور الرجل لعملية التركيب وفق نظام لغوي يعكس بصورة أو بأخرى عبقريته ،فالوحدة اللغوية إذا لم تقع في موقعها اللائق بها يحدث تنافرا بينها وبين الوحدات المجاورة لها وبالتالي نقول" إن موقع الوحدة لا تأخذه اعتباطا بل-يكون الاختيار في الكلمات محكوما بقواعد النظام –النظم ،texture –وبقواعد الإجبار التي تفرضها علاقات التأليف لأن الكلمة السابقة تفرض ظروفها على اللاحقة ،فتقرر ما يناسبها وتبعد ما يتنافر معها "[7].

فها هو الجاحظ يضاهي ويقترب من النظرة الحديثة لعلاقات التركيب بقوله :"...وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر-

---

[1])-البيان و التبيين ،ج4،ص30.

[2]) – يقول الدكتور:إبراهيم أنيس في كتابه الموسوم بدلالة الألفاظ تكاد تجمع المعاجم العربية على أن "الألفاظ "ترادف "الكلمات "في الاستعمال الأعم فلا فرق بين أن يقال أحصينا ألفاظ العربية أو كلمات العربية ،ورغم هذا فالنحاة يحاولون التفرقة بين الكلمة واللفظ والقول ،فهم يستشعرون مع اللفظ عملية النطق وكيفية صدور الصوت وما يستتبع هذا من حركات اللسان والشفتين ،فإذا ربط المتكلم هذه الأصوات المنطوق بها وما يمكن أن ندل عليه من معنى تكونت في [2]رأيهم "الكلمة"أي أن الكلمة أخص لأنها لفظ دل على معنى ينظر: من على هامش ،دلالة الألفاظ ،ص 138 .

[4])- البيان والتبيين ،ج1،ص 123.

5)- نفسه،ص 162 .

6)-ينظر:الخطيئة والتكفير، ص36.

7)- نور الدين السد ،الأسلوبية وتحليل الخطاب (دراسة في النقد العربي الحديث)دار هومة،للطباعة والنشر و التوزيع،الجزائر،ج1،ص 168 .

1)- الخطيئة والتكفير،ص40 .

إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها،والقافية لم تحل في مركزها وفي نصابها،ولم تتصل بشكلها ،وكانت قلقة في مكانها نافرة من موضعها،فلا تكرها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها،فإنك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ،ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور لم يعبك بترك ذلك أحد،فإن أنت تكلفتها،ولم تكن حاذقا مطبوعا و لا محكما لشأنك بصيرا بما عليك وما لك ،عاب من أنت أقل عيبا منه .... "[1] .

إجمالا يمكننا ملاحظة أمر جد هام يتمثل في مدى إلحاح الجاحظ في كل مرة على أن هذه الآلية ليس من السهل أن يتعاطاها أي أحد،بل من أراد ذلك لابد أن يكون عارفا بقواعد النظام اللغوي هذا جهة ومن جهة ثانية يكون من الذين قرضوا الشعر كما أن يكون ممن تكلفوا اختيار الكلام .

فالجاحظ يرى أن اللفظة إذا لم تقع في موقعها ولم تصر إلى قرارها الخاص بها المقسوم لها،يعد ذلك اغتصابا لها ،فهو يشبهها بالإنسان الذي ينزل في موطن غير موطنه فيحس بلوعة الفراق ،فالتأليف في رأي الجاحظ يحتاج إلى متكلم حاذق مطبوع محكما لشأنه بصيرا بما له وما عليه.

الجاحظ يرى أن الحركات الإعرابية لها دور في تحديد وفهم المعنى إذ يعتبرها علامات دالة يقول في ذلك :"وإن عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء .و أصحاب هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منا مكره أخاك لا بطل "و"إذا عز أخاك فهن "ومن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم :ذهبت إلى أبو زيد،ورأيت أبي عمرو ،ومتى وجد النحويون أعرابيا يفهم هذا وأشباهه بهرجوه ولم يسمعوا عنه ،لأن ذلك يدل على طول إقامته في الدار التي تفسد اللغة وتنقص البيان"[2] ، ومنه يكننا القول بأن النحاة الأوائل الذين وضعوا قواعد النحو العربي ،إذا وجدوا من لا يفرق بين الأبواب النحوية كالفاعلية والمفعولية والإضافة وغيرها من الأبواب النحوية الأخرى لم يأخذوا عنه،لأن الحركات الإعرابية من نصب أو رفع أو خفض أو جزم إنما يكون بالنظر إلى الموقع الذي تحتله الكلمة في السياق اللغوي[3] .

بهذا نستطيع القول و دون أن نجزم في ذلك بأن الجاحظ تنبه إلى الدور الهام الذي يلعبه الإعراب في تحديد الدلالة ،كونه سمة دالة على المراد من الكلام ،و حتى نوجز الحديث إلى ما يصبوا إله -ربما- الجاحظ بأنه يعلم الدور الكبير للإعراب في بيان مقاصد المتكلم فلا يحصل فهم الكلام إذا لم نراع صحة الإعراب وسلامة التأليف.

فصاحب البيان والتبيين قد أدرك أهمية علاقات التأليف في الكشف عن المعنى و مقاصد الكلام يقول في ذلك:"إذا كان الشعر مستكرها ،وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات،وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا،كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر

---

[2])- البيان والتبيين، ج1،ص 138.

[2]) - نفسه ،ص ص 162،163.

[3])- ينظر:عبد النعيم خليل ،نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ،ط1،2007م،ص75.و للتوسع أكثر في المعنى الإعرابي للكلمة،ينظر : توفيق بن عمر بلطه جي، كيف نتعلم الإعراب ،دار الفكر المعاصر ،بيروت –لبنان ،1999م،ص 204 ،وما بعدها

مؤونة "[1]

حتى تتحقق صفة التآلف والانسجام بين الكلمات لابد أن نضع الكلمة إلى جنب أختها التي لا يوجد بينها وبين جارتها تنافر،حيث يسهل على المنشد إنشادها "وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سعل المخارج ،فتعلم بذلك أنه قد أفرغ افراغا واحدا وسبك سبكا واحدا ،فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان "[2] .

إن الوحدات اللغوية الدالة وغير الدالة التي تكلم عنها الجاحظ وحدات تتحرك أفقيا وتعتمد على التجاور بين الوحدات المؤلفة هذا بحكم الصلة بين هذه الوحدات ،حيث تكون صلة تآلف تبادلية ،أو صلة تنافر مما يجعل التأليف ممكنا أو غير ممكن فكلمة –جاء- على صلة تآلف تبادلية مع -الرجل-مما يمكننا من التأليف (التركيب) فنقول :جاء الرجل ،لكن كلمة جاء تتنافر مع فعل آخر مثل غاب ولا نستطيع التأليف بينهما ،فنقول :"جاء غاب ،ولذا فإن الكلمة تؤسس وظيفتها بعلاقتها بما يجاورها،مما سبق عليها ومما لحق عليها "[3]،فالعلاقات التركيبية علاقات حضورية تحدد موقع الكلمة داخل التركيب اللغوي انطلاقا من ذلك التعالق الموجود بين العناصر اللغوية في إطار ما يعرف بالنظام اللغوي متمثلا في قواعد و قوانين النحو لكل لغة من لغات العالم.

خاتـــمة:

إن ما أردنا البحث فيه ليس نفيا أو إثباتا لهذه القضية بل محاولة ربط أدوات الدرس اللساني الحديث بالتراث اللغوي العربي،فهي دراسة هدفت إلى تأصيل تفكير الدرس اللساني الحديث في التراث اللغوي العربي،والجاحظ ما هو إلا نمذجة لذلك العمل التأصيلي.

- الجاحظ تميز بقوة في الطرح و عمق في الفكر انطلاقا من النصوص التي تقصيناها في هذا العمل.
- إدراك الجاحظ لأهم العمليات التي تعمل بها اللغة العربية إنتاجا و فهما،وهذه الآليات لا تتعلق باللغة العربية فقط بل بلغات العالم قاطبة.
- الجاحظ استعمل مصطلحي التخيير و التأليف بدل الاستبدال و التركيب.
- أدرك الجاحظ أن العلاقات التخييرية و التأليفية علاقات جد هامة في بناء المعاني وتوصيلها للمتلقي بطريقة صحيحة و سليمة.
- المتكلم إذا أراد ان يكون كلامه في أحسن حلة فعليه أن يحسن اختيار الألفاظ وضعها في الموضع الذي يناسبها بالتركيب اللغوي للتعبير عن المعنى الذي يريد إيصاله للمتلقي.

---

[1])- البيان والتبيين، ج1،ص ص 66-67.

[2])- نفسه،ص 67.

[3])- الخطيئة والتكفير،ص 36.

- العناصر اللغوية داخل التركيب اللغوي لا تأخذ مكانها بطريقة عشوائية بل مرهونة بتلك العلاقات الاستبدالية و التركيبية في إطار ما يعرف بالنظام بمختلف مستوياته اللغوية دون نسيان السياق المقامي الذي له أثر كبير في اختيار تلك الألفاظ للتعبير عن المعاني.

مصادر ومراجع الدراسة:

1-أحمد حساني،مباحث في اللسانيات،و م ج الجزائر،1994.
2- أندري مارتيني،مبادئ في اللسانيات العامة،دار القصبة للنشر،ط2001،1م .
3- أنيس إبراهيم،دلالة الألفاظ ،مكتبة الأنجلوالمصرية،د ط ،1997م.
4- توفيق بن عمر بلطه جي، كيف نتعلم الإعراب،دار الفكر المعاصر،بيروت– لبنان،1999م.
5- الجاحظ(أبو عثمان)-البيان والتبيين،تح:عبد السلام مُحَمَّد هارون،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،دت،ج1+3+4.
6- حنون مبارك – دروس في السيميائيات،دار توبقال للنشر،المغرب،ط1987،1م.
7- شفيقة العلوي – محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة ،أبحاث للترجمة و النشر و التوزيع،ط2004،1م
8- طه الحاجري،الجاحظ حياته وآثاره،دار المعارف بمصر،د ط،1969م.
9- عبد الله الغذامي–الخطيئة و التكفير،(من البنيوية إلى التشريحية)النادي الأدبي الثقافي،دط،1987م .
10- عبد النعيم خليل ،نظرية السياق بين القدماء والمحدثين ،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،ط2007،1م.
11- فرديناند دي سوسير – محاضرات في الألسنية العامة،تر:يوسف غازي ومجيد النصر ،المؤسسة الوطنية للطباعة،دط،1986م.
12- كريم زكي حسام الدين ،أصول تراثية في اللسانية الحديثة،ط2001،3م .
13- مارسيل داسكال،الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة،تر:مُحَمَّد العمري،عبد الرحمن طنكول،مُحَمَّد الولي،مبارك حنون،إفريقيا الشرق،الدار البيضاء،دط،1987م.
14- مُحَمَّد حسن عبد العزيز ،سوسير رائد علم اللغة الحديث ،دار الفكر العربي،القاهرة،ط1 .
15- مُحَمَّد الصغير بناني،النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين ديوان المطبوعات الجامعية ،دط،1999م.
16- مصطفى حركات ، اللسانيات العامة ، دار الآفاق،د ط ت.
17- ميجان الرويلي–سعد البازعي،دليل الناقد الأدبي ،إضاءة لأكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا ،المركز الثقافي العربي ،بيروت،لبنان،ط2000،2.
18- نور الدين السد ،الأسلوبية وتحليل الخطاب (دراسة في النقد العربي الحديث)دار هومة،للطباعة والنشر و التوزيع،الجزائر،د ط ت ،ج1.
19-مصطفى مُحَمَّد طه[مقال]العودة إلى التراث ضرورة حضارية،مجلة آفاق الثقافة والتراث،السنة الثامنة عشرة،ع/70،يونيو2010.

21- Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, enaG/alger,reghaia 1990
22-Roland Barthes essais critiques éditons de seuil, paris,1964